الشعرانى يسأل؟ والخواص يجيب!

الامام العارف بالله ، أبو المواهب ، عبد الوهاب الشعرانى ، علم من أعلام التصوف الاسلامى ، وامام من أكبر أئمته ملأ الدنيا علماومعرفة ونورا ، حتى ليقول عنه المستشرق « فولرز » ان الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية ، صوفيا من الطراز الاول ، وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزا أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحا يكاد الاسلام لا يعرف له نظيرا ، وان كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من بينها أربعة وعشرين كتابا تعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق اليه أبدا ، ولم يعالج ذكرتها أحد قبله »

ويقول المستشرق « نيكلسون » انه منذ فتح المغول العالم الاسلامى ركدت الحركة الفكرية فى الاسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد فلا تجد بوادر انطلاق أو انتاج خصب منتج ، أو أى أثر لتفكير أصيل وضىء باستثناء شخصيتين شاذتين هما ابن خلدون المؤرخ،والشعرانى الصوفى، وكان الشعرانى بالذات مفكرا مبدعا أصيلا أثر تأثيرا واسع المدى فى العالم الاسلامى يشهد به الى يومنا الحاح القراء الحاحا متواصلا فى طلب مؤلفاته »

والشعرانى مع تلك المكانة الضخمة العالية ، كان تلميذا فى مدرسة التصوف العليا ، كان نفحة من نفحات العارف الربانى الأمى على الخواص

كان مريدا فى جامعة الخواص ، فى جامعة التصوف التى تستمد معارفها من الفيض الالهى ، والفتح الربانى ، والالهام القلبى

يقول شيخ المتصوفة العلامة القشيرى : « لو ان رجلا جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس كلهم لا يبلغ مبلغ الرجال الا بالرياضة من شيخ او امام مؤدب ، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يربيه ويريه عيوب أعماله ، ورعونات نفسه ، لا يحل الاقتداء به فى تصحيح المعاملات »

ويقول الشعرانى : « ولو ان طريق القوم يوصل اليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالى ومحيى الدين الى شيخ . ثم يقول : (الخواص رجل من رجال الله ، وعلم من الاعلام الهداة ، ومحجة ومنارة من المنارات التى يهبها الله لعباده ، والخواص فى الطريق وعند أهله كامل من السادة وان جهله الناس » .

والخواص هو معراج الشعرانى ، وسلمه الذى صعد عليه الى أبواب الفتح ، وسموات المنح ، ومناطق الالهام والنور

وصلة الخواص بالشعرانى ، هى آية من الآيات على مقام الشيخ فى الطريق ، وهى أيضا آية على مقام العلم اللدنى ، فقد كان الخواص أميا ، وكان الشعرانى عالما ، ذلك هو حكم الظاهر ، أما حكم الباطن ، فقد كان الخواص عالما ، وكان الشعرانى أميا

علم الخواص كان الوهب ، وعلم الشعرانى كان الكسب ، والعلم الحقيقى عند الصوفية ، هو العلم الذى يقول صاحبه ، انه علمى ، انه فتحى ، لان علوم الفتح خاصة بصاحبها

ويقول الخواص : « من أراد أن يعرف مرتبته فى العلم الذى يزعم انه من أهله ، فليرد كل قول الى قائله ، وكل علم الى عالمه ، وكل شىء استفاده من أمر دنياه وآخرته الى من استفاد منه ، وينظر نفسه بعد ذلك »

والشعرانى يصف أستاذه وشيخه على الخواص ، فيقول : « رجل غلب عليه الخفاء ، فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم الا العلماء العاملون ، لانه رجل كامل عندنا بلا شك »

ويقول صاحب كتاب « التصوف الاسلامى » - ان الخواص الذى عرفناه فى كتب الشعرانى لا يقل عظمة عن سقراط الذى عرفناه فى كتب أفلاطون ، والفرق بين الرجلين ان سقراط أولع بمخاطبة العقول ، والخواص أغرم بمخاطبة القلوب ، والقلب أبقى من العقل ، وله فى كل زمان انصار واشياع »

ويحدثنا الشعرانى عن حياته مع شيخه ، وعن الاسئلة العلمية العالية التى وجهها اليه ، واختصه الخواص بالجواب عليها فيقول : « انها فتاوى شيخنا وقدوتنا ولى الله تعالى ، الكامل الراسخ الأمى المحمدى سيدى على الخواص ، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته وبركات علومه فى الدنيا والآخرة ، التى سألته عنها مدة صحبتى له ، ثم يقول : « لا يخفى ان الشيخ رضى الله عنه كان من كمل الاولياء ، والكمل لا يسترون لهم قولا ، لان رتبتهم تقتضى الاطلاق والسراح وعدم التحيز فى معنى دون آخر كما عليه المقلدون ، فلذلك كان الكمل لا يرون فى الوجود شيئا باطنا حيث ظهر الحق تعالى لهذا المظهر التقليدى الذى هو أتم المظاهر ، ولا يرون شيئا له ظاهر وباطن أبدا ، فان هذا المشهد انما هو من صفة أرباب الاحوال والمقامات الذين يرون الظاهر والباطن ، للحجاب هم ماكثون فيه بين حقيقتى الاسم الظاهر والباطن ، وهو البرزخ الفاصل بين عالم الغيب والشهادة ، وأما الكمل فانهم يعلمون ان المسمى بالباطن

هو المسمى بالظاهر حال كونه باطنا ، ويعلمون ان المسمى بالظاهر هو المسمى بالباطن حال كونه ظاهرا »

ويقول الخواص للشعرانى : « كل لقمة نزلت فى جوف صوفى من غير كسبه الشرعى ، أخذت من عبوديته جانبا ، واسترقته لغيره .. ثم يقول مدللا على أن الاصل فى التقوى هى طهارة المطعم : أعلم ان المدد الذى لم يزل فياضا على قلب كل انسان يتلون بحسب القلب ، والقلب يتلون بحسب صلاح الطعمة وفسادها ، فالله سبحانه وتعالى ينطق على لسان عبده بحسب مضغته ، فان كان قلبه مطهرا من سائر الرذائل ، نطق بالكلام النفيس الذى يشبه الوحى ، وان كان ملطخا بشىء من القاذورات ، نطق بما يشبه كلام الشياطين »

ويرشد الخواص الشعرانى الى التوحيد ، والى الالتجاء والاتجاه دائما الى الله سبحانه وتعالى بدون وساطة فيقول له ، ردا على سؤال له :

« لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبى أو غيره ، لان الرسول انما هو واسطة بين العبد وبين الرب فى الدعوى الى الله ، لا الى نفسه ، فاذا وقع الايمان الذى هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب اذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب الى العبد من نفسه ومن رسوله ، ولم يبق للرسول الا حكم الافاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع ، كما فى حال المناجاة فى السجود ، فالرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون الله تعالى ، فانه يعلم ان مقصود التشريع حصل بالتبليغ ، كما حصل له الأجر على ذلك ، كما أشار اليه قوله صلى الله عليه وسلم : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » وانظر يا أخى الى غيرة الحق تعالى على عباده لقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم :

« واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان »

فاعلمنا تعالى بأنه أقرب الينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى واسطة لنا فى كل خير ، مع انه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » وبقوله : « **ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله** » ومع ذلك قال له : « **ليس لك من الامر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون** » فأخرجه عن حال الخلق ونفاه عنهم ، وأثبته معه فى البراءة من المثلية وعن مشاركة أحد منهم له فى كماله أو رتبته صلى الله عليه وسلم »

ويسأله عن ترك الاسباب والتوكل ، فيقول كلمته الخالدة : « من كان تاركا للاسباب دار الفلك بنصيب غيره ولم يحصل له شىء » .

يقول الشعرانى :

« وسألته : ما آفة العقل ؟ فقال : الحذر ، فقلت له : فما آفة الاسلام

والايمان ، فقال : العلل ، فقلت فما آفة العمل ، قال : الملل ، فقلت فما آفة العلم ، قال : الدعوى ، فقلت فما آفة الحال • قال : الأمن ، فقلت فما آفة العارف • قال : الظهور ، فقلت : فما آفة القول • فقال : الجور ، فقلت : فما آفة المحبة • فقال : الشهوة النفسانية ، فقلت : فما آفة التواضع ، فقال : الذلة لغير الله ، فقلت له : فما آفة الصبر فقال : الشكوى لغير الله ••• فقلت له : فما آفة التسليم ، فقال : التفريط فى أوامر الله ونواهيه ، فقلت فما آفة الغنى ، فقال : الطمع فى أن يكون كل شىء له ، فقلت : فما آفة العز ، قال : البطر ، فقلت : فما آفة الكرم ، قال : السرف ، فقلت : فما آفة البطالة ، قال : الفقر من الاعمال فى الدارين ، فقلت : فما آفة الكشف ، قال : التكلم به ، فقلت : فما آفة الاتباع للسنة ، فقال : التأويل للآيات والاخبار ، فقلت: فما آفة الادب ، فقال التفسير ، فقلت : فما آفة الصحبة ، قال : المنازعة، فقلت : فما آفة الفهم ، قال : الجدال مع الناس ، فقلت : فما آفة المريد، قال : التسلل على مقامات الرجال من غير سلوك طريقهم ، قلت : فما آفة الفتح ، قال : الالتفات الى غير الله ، فقلت : فما آفة السالك ، فقال: الوهم ، فقلت : فما آفة الدنيا ، فقال : شدة الطلب لها ، فقلت : فما آفة الآخرة ، قال : الاعراض عن أعمالها التى يكون منها بناء دورها وقصورها ونعيمها ، فقلت : فما آفة الكرامات ، قال : الاستدراج ، فقلت : فما آفة الداعى الى خير ، فقال : حب الرياسة ، قلت : فما آفة التقليد ، فقال : الوسوسة ، فقلت : فما آفة رؤية النقص فى الاعمال ، فقال : قلة الشكر لله »

يقول الشعرانى وسمعته يقول : « عليكم بتطهير باطنكم من الغل والحسد والحرص ، ونحو ذلك فان الملك لا يرضى أن يسكن بجواركم وأنتم على هذا الحال ، فكيف بالحق تعالى :

وسمعته يقول لقارىء ، وكان ذلك القارىء من العارفين : اقرأ القرآن من حيث ما هو كلام الله ، لا من حيث ما تدل عليه الآيات من الاحكام والقصص ، فانها هى الران على قلبك والحجاب ، فقلت له وكيف ؟ فقال رضى الله عنه : المراد بتدبر القرآن الذى أمرك الله به ، ان يجمعك تدبرك على صاحب الكلام ، وأما تدبر الاحكام والقصص فانه مفرقات فآية تذهب بك الى الجنة فتشهد ما فيها ، وآية تذهب بك الى النار فتشهد ما فيها ، فيحجبك ذلك الشهود عن الحق تعالى ، فرجع تدبرك الى شهود الاكوان الدنيوية أو الاخروية ، ومن كان مع الكون لم يحظ بشهود الكون »

وبعد ••• فذلك لون من المعرفة الصوفية العالية ، فيه هدى ونور ، وذوق وتذوق ، لمن ألقى السمع وعين قلبه مبصرة ••